الغزل بالمذكر في الشعر الأندلسي

بواعثه وخصائصه

م.م جنان خالد ماهود

جامعة بغداد/ كلية العلوم الإسلامية

بسم الله الرحمن ا لرحيم

المقدمة

والحمدُ لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد تُكون اشعار الغزل بالمذكر جزءاً كبيراً من ديوان الشعر الأندلسي، فقد قال فيه معظم شعراء الأندلس إلاّ إن الدراسات التي بحثت فيه شهدت قصوراً ملحوظاً، وربما يعود هذا القصور إلى سببٍ أخلاقي مخافة ان تُلصق تهمة الشذوذ بالمجتمع الأندلسي، وقد غاب عن الباحثين أن دراسة هذا الموضوع قد تسهم في تحجيم هذه الظاهرة وتقليصها في المجتمع الأندلسي لأنها تُظهر البواعث الحقيقية وراء شيوع هذا الغرض.

لذلك جاءت هذه الدراسة على فصلين الأول يبحث في بواعث الغزل بالمذكر والتي تمثلت في الباعث الفني وهو من أهم البواعث وقد كان وراء الكثير من اشعار الغزل بالمذكر. ثم يليه الباعث النفسي ويتمثل أما في حب بعض الشعراء للغلمان والتغزل بهم أو سعي البعض وراء الجمال وتصويره أينما وجد.

أما الباعث الأخير فهو الباعث الاجتماعي والذي أسهم في شيوع هذا الغرض وانتشاره بشكل كبير بين مختلف فئات المجتمع الأندلسي.

اما الفصل الثاني من هذه الدراسة فأنه مخصص لدراسة الخصائص النفسية لهذا الغرض وما تميز به من سمات فنية سواء كانت في اللغة أو في الموسيقى أو في الصورة الفنية.

وختمت البحث بذكر أهم النتائج التي كانت ثمرة هذا البحث الذي بذلت فيه ما وسعني من الجهد، ثم يليه ثبت بقائمة المصادر والمراجع.. واسأل من الله التوفيق

التمهيد

نشأة أشعار الغزل بالمذكر

شاع غرض الغزل بالمذكر في العصر العباسي، وبالتحديد في عصر نبوغ أبي نواس (ت ١٩٨هـ)، إلا إن نشأته قد سبقت هذا العصر، فقد تضافرت عوامل عدة في العصر الأموي لظهوره، أهمها تغلغل عناصر من الحضارتين الفارسية والرومية إلى الدولة الأموية، فقد دخل فيها افواج من الموالي والجواري، ورافقت هذه الموجة غدق الأموال من الفتوحات الإسلامية مما هيأ لظهور مجالس الطرب التي كانت بحاجة إلى نوع جديد من الشعر، ليعبر عن هذه الحياة اللاهية التي تحضر أصحابها ورقت أذواقهم، وقد عزز هذا الاتجاه مجيء الوليد بن يزيد بن عبد الملك (ت ١٢٦هـ) إلى الخلافة الذي عاش للهو، ولم يكن اللهو حينئذ سوى شرب الخمرة والاستماع إلى الغناء(١) في مجالس كان ينادمه فيها أشهر شعراء المجون آنذاك أمثال مطيع بن اياس (ت١٦٩هـ) وحماد عجرد (ت١٦١هـ) اللذان رافقاه حتى وفاته.

هذه الظروف كانت الأرضية الملائمة لنمو الشعر الماجن الذي كان أحد موضوعاته الغزل بالمذكر إلاَّ أن القول في هذا الغرض كان في حدود ضيقة جداً يكاد ينحسر في الكوفة فقط، فبعد مقتل الخليفة الوليد بن يزيد عاد كلٌ من مطيع بن أياس وحماد عجرد إلى الكوفة التي كانت تضم غيرهم من الشعراء

---

(١) ينظر: التطور والتجديد في الشعر الأموي، شوقي ضيف، ص٣١٨، دار المعارف بمصر ط٢.

المجون أمثال والبة بن الحباب ويحيى بن زياد(١)، وغرقوا هناك في اللهو والمجون لتأتي أشعارهم صدى لحياتهم فنجد فيها الزندقة والغزل المكشوف والغزل بالمذكر.

وقد سبقت الكوفة "البصرة وبغداد جميعاً لهذا العصر في الفسق والمجون إذ غرقت فيهما إلى أذنيها، وكان مما أعدَّ لذلك دار نخاسة كبيرة قامت بها منذ أواخر عصر بني أمية وهي دار ابن رامين وكان قد جلب إليها كثيرات من قيان الحجاز وإمائه المغنيات أمثال سعدة ورُبَيعة وسلامة الزرقاء، وتولع بهن كثير من شباب الكوفة وغيرهم أمثال إسماعيل بن عمار ومحمد بن الأشعث وشراعة بن الزند بوذ ونظموا فيهن كثيراً من الأشعار المادية التي لا تخلو أحياناً من الفحش"(٢).

إنَّ موجة المجون هذه كانت تقوى يوماً بعد يوم وقد وجدت لها متنفساً في العصر العباسي فانطلقت بقوة لتغرق فيها عاصمة الدولة الإسلامية بغداد.

وقد ساعد في اشتداد هذه الموجة انتشار شرب الخمرة بشكل كبير حتى أصبح الإدمان عليها ظاهرة عامة على الرغم من نهي القرآن عنها وحضِّه على اجتنابها وكان من أسباب انتشارها وإقبال الناس عليها اجتهاد بعض فقهاء العراق إلى تحليل بعض الانبذة كنبيذ التمر والعسل والبر(٣) والتين(٤). فشربها

---

(١) ينظر العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، ص٣٨٦، دار المعارف بمصر.

(٢) العصر العباسي الأول: ٣٨٣.

(٣) البِر: الحنطة.

(٤) ينظر: ضحى الإسلام، أحمد أمين، ١/١١٩، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان.

الخلفاء ثم شربها الناس وقد بلغ شرب الخمرة الذروة في عهد الأمين (ت١٩٨هـ) الذي اشتهر بشربه للخمرة المسكرة.

"ومما لا ريب فيه أن إدمان الخمر حينئذ وقع إلى كثير من المجون والعبث والإباحية، وكان المجتمع زاخراً بزنادقة وملاحدة وأناس من ديانات شتى مجوسية وغير مجوسية فمضى كثيرون يطلقون لأنفسهم العنان في ارتكاب الآثام متحررين من كل قانون للخلق والعرف والدين"(١) ومما سهل الوقوع في هذه الخطئية كثرة الغلمان المخنثين المجلوبين من الأمم المجاورة التي شاعت فيها هذه الخطيئة.

في ظل هذه الظروف ازدهر شعر الغزل بالمذكر وشاع ليصل إلى ذروته على يد أبي نواس الذي سخر له كثيراً من طاقاته الفنية فجاء شعره فيه "ملتهب العاطفة يبلغ القمة في الأداء وعذوبة الانسجام على الرغم مما به من شذوذ وتطرف وإفراط ناجم عن طبيعة أبي نواس الشاذة فقد كان يعشق عدداً من الغلمان"(٢).

ومهما يكن فقد ساعد أبو نواس على نشر هذا الغرض في ارجاء الدولة الإسلامية ومنها الأندلس التي أكثر شعراؤها من القول فيه كثرة مفرطة دعتنا إلى دراسته في هذا البحث.

---

(١) العصر العباسي الأول: ٧١.

(٢) الموجز في الأدب العربي وتاريخه، حنا الفاخوري، ٣٠٤/٢، دار الجيل- بيروت، ط١، ١٩٨٥.

الفصل الأول

بواعث الغزل بالمذكر

اختلف النقاد والباحثون في أسباب شيوع ظاهرة الغزل بالمذكر في الشعر العربي بصورة عامة، فمنهم من أرجعها إلى شيوع الشذوذ في المجتمع العربي في عهوده المتأخرة(١)، ومنهم من أرجعها إلى اختلاط العرب بالأمم الأخرى(٢)، ومنهم من أرجعها إلى تقليد الشعراء الذين قالوا في هذا الغرض(٣).

والحق أن شيوع هذه الظاهرة لا يرجع إلى سبب واحد من هذه الأسباب وإنما تضافرت أسبابٌ عدة لشيوعه في الشعر المشرقي والاندلسي على حدٍ سواء. والذي يعنينا هنا شيوعه في الشعر الأندلسي.

ويمكن حصر هذه البواعث في:

أولاً- الباعث الفني:-

ونعني به أنَّ الشاعر يقول في هذا الغرض محاولةً منه لاثبات مقدرته الفنية ويتم ذلك عن طريقين هما:

١- محاكاة مشاهير الشعراء الذين سبقوه في القول بهذا الغرض لا سيما المشارقة منهم، فقد عرف عن الأندلسيين بشدة إعجابهم بالمشارقة والاحتذاء بهم في شتى

---

[١] ينظر: أسطورة الأدب الرفيع، علي الوردي، ص٧١، منشورات سعيد بن جبير، قم، ط١، ٢٠٠٠م.

[٢] ينظر: الأدب الأندلسي فنونه وموضوعاته، مصطفى الشكَعة، ص ٥٣، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٧٩.

[٣] ينظر: العصر العباسي الأول: ٣٨٤.

نشاطهم ولا سيما في الحقبة التي حكم فيها الأمويون وهي حقبة بناء الحضارة الأندلسية، ولما كان الشعر أحد جوانب هذه الحضارة فقد بدا عليه سيماء الاحتذاء والتقليد(١).

والمعروف أن الشعر المشرقي في هذه الحقبة كان يشهد نبوغ أبي نواس وتجديده، وما إن وصل شعره إلى الأندلس حتى نجد الشعراء يتخذونه مثالاً يحاكونه في خمرياته ومجونه وغزله بالمذكر، ومن أوائل الشعراء الذين تأثروا به يحيى بن الحكم الغزال (ت٢٥٠هـ)، فقد كان "ينسج على منواله حتى يخال لمن يسمع شعره أنه لأبي نواس"(٢).

ومن غزله بالمذكر قوله في ابن إمبراطور بيزنطة(٣):

وأغيدَ ليِّن الأطراف رخص كحيل الطرف ذي عنقٍ طويلِ(٤)

ترى ماءَ الشَّبابِ بوجنتيهِ يلوحُ كرونقِ السيفِ الصقيلِ

من أبناءِ الغطاريفِ قيصري الـ ـعمومةِ حين ينسبُ والخؤولِ(٥)

كأن اديمُهُ نصفاً بنصفٍ من الذهبِ الدلاصِ أو الوذيلِ[١]

---

[١] ينظر الأدب العربي في الأندلس، عبد العزيز عتيق، ص١٦٤، دار النهضة العربية. مصر.

[٢] اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري، نافع محمود، ص٧٣، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠م.

[٣] الإسلام في المغرب والأندلس، ليفي بروفنسال ترجمة محمد عبد العزيز سالم، ص١٠٨، نهضة مصر، ١٩٥٧.

[٤] الاغيد: الناعم المتثني، رخص: اللين.

[٥] الغطاريف: جمع غطريف وهو السيد الشريف.

وربمَّا أكررُ فيه طرفي   فأحسب أنه من عظم فيلِ

ونلمس أثراً أكبر لأبي نواس في أشعار ابن شهيد الأندلسي (ت٤٢٦هـ) الذي كان معجباً به كثيراً وهذا ما يظهر من خلال محاورته مع تابع أبي نواس في رسالة التوابع والزوابع فقد قال بعد أن التقاه "فأدركتني مهابةٌ، واخذتُ في إجلاله لمكانه من العلم والشعر"(٢).

و لم يقل هذا الكلام عن أي تابع من توابع الشعراء الآخرين الذين التقاهم ونتيجة لهذا الإعجاب نجده يحتذي طريقته في الغزل بالمذكر في قصيدة منها(٣):

أصفيحٌ شِمَ أم برقٌ بدا   أم سَنا المحبوبِ أورى أزنُدا؟(٤)

هبَّ من مرقدهِ منكسراً   مُسبلا للكمِّ مُرخِيْ للرِّدا

يمسحُ النَّعسة من عيني رشاً   صائدٍ في كل يوم أسدا

أوردتْه لُطفاً آياته   صفوةَ العيشِ وأرعته ددا(٥)

---

(١) الدلاص: البراق، الوذيل: قطعة من الفضة المجلوة.

(٢) رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي، تحقيق بطرس البستاني ص١٠٦ صادر- بيروت، ١٩٥١.

(٣) ديوان ابن شهيد الأندلسي، جمعة وعني بتحقيق شارل بيلات، ص٤٩، دار المكشوف- بيروت، ١٩٦٣.

(٤) شِمَ: نظر إليه أين يتجه.

(٥) الدد: اللعب واللهو.

فهو من دلٍّ عراهُ زبدةٌ   من صريحٍ لم تخالطْ زبدا

قلت: هبْ لي يا حبيي قبلةً   تشف من عمك تبريح الصدى

ونلاحظ في هذه الأبيات أن ابن شهيد لم يكتف بالاحتذاء بأسلوب أبي نواس ومعانيه فقط، بل نجده يحتذي صراحته أيضاً حتى لا نفرق بينهما(١).

وممن سار في هذا الركب ابن الأبار الأشبيلي (ت٤٣٣هـ)(٢) في قصيدته التي منها(٣):

زارني خيفةَ الرقيبِ مُريباً   يشتكّي القضبُ منه الكثيبا

رشأٌ راشَ لي سهامَ المنايا   من جفونٍ يُصمي بهنَّ القلوبا(٤)

ونكتفي بهذين البيتين من القصيدة لأنها مليئة بالألفاظ الفاحشة الخارجة عن الذوق حتى نجد ابن بسام الشنتربني (ت٥٤٢هـ) صاحب كتاب الذخيرة يعلق عليها بقوله "ولقد ظَرُفَ ابن الأبار واستهتر ما شاء وندر، وأظنه لو قدر على إبليس الذي تولى له نَظمَ هذا السلكِ وأوطأ له ثَبج هذا الملك لدبّ إليه ووثب أيضاً عليه، وأبو نواس سهل هذا السبيل للناس"(٥).

---

(١) ينظر: ابن شهيد الأندلسي حياته وأدبه، حازم عبد الله خضير، ص٨٨، دار الشؤون الثقافية والنشر- العراق،١٩٨٤.

(٢) ابن الأبار الأشبيلي هو أحمد بن محمد الخولاني الأشبيلي أحد شعراء المجون في الأندلس ترجمته في (الذخيرة ٢/١٠٧).

(٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، تحقيق أحسان عباس، ٢/١٢٠، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٠م.

(٤) يصمي: يصيب.

(٥) المصدر نفسه: ٢/١٢٠.

ولا تقتصر المحاكاة في هذا الغرض على أبي نواس فقط، وإنما نجدهم يحاكون شعراء آخرين قالوا بهذا الغرض فهذا ابن خفاجة (ت٥٣٣هـ) يحاكي أبياتاً لابن رشيق القيرواني (ت٤٥٦هـ) استحسنها أحد فقهاء الأندلس(١) وهو أبو عمران بن أبي تليد(٢) (ت٥١٧هـ) وأبيات ابن رشيق هي(٣):

يا من يمُّر ولا تَمرُّ   به القلوب من والفَرَاقْ
بعمامةٍ من خدَّهِ   أو خدُّه منها اسَترقْ
فكأنَّه وكأنها   قَمرٌ معمَّمُ بالشَّفقْ
فإذا بدا وإذا انثنى   وإذا شدا وإذا نطقْ
شغل الخواطر والجوا   نحَ والمسامعَ والحدقْ

---

(١) ينظر المطرب من أشعار أهل المغرب، لابن دحية، تحقيق إبراهيم الابياري وحامد عبد المجيد وأحمد أحمد بدوي، ص١١٣، دار العلم للجميع، سوريا، ٩٥٥.

(٢) هو أبو عمران موسى بن عبد الرحمن ابن أبي التليد فقيه حافظ مشهور توفي سنة ٥١٧هـ ترجمته في (بغية الملتمس تسلسله ١٣٣١).

(٣) ديوان ابن رشيق القيرواني جمعة عبد الرحمن ياغي، ص٧٢، دار الثقافة، بيروت

وأبيات ابن خفاجة هي(١):

ومهفهفٍ طاوي الحَشَا   خَنِث المَعَاطف والنَّظرْ[٢]

مَلأَ العيُونَ بصورةٍ   تُلِيتْ محاسِنُها سُورْ

فإذا رنا وإذا شدا   وإذا سعى وإذا سَفَرْ

فضَحَ المُدامةَ والحَما   مةَ والغَمامةَ والقَمرْ

٢- وقد تأخذ محاولة إثبات المقدرة الفنية شكلاً آخر يتمثل في القول على البديهة في أي غرضٍ يطلب من الشاعر القول فيه، وهو معيار أولاه الأندلسيون أهمية كبيرة في الحكم على ملكة الشاعر لأنه نوع من النظم يدل على تيقظ خاطر الشاعر وسرعة تهيئته للشعر في ذهنه(٣).

ويذكر أنَّ الحاجب المنصور بن أبي عامر (ت٣٩٢هـ) كان لا يدخل الشاعر في ديوان الشعراء إلا إذا اختبره في القول على البديهة(٤). وغالبا ما يقع طلب القول على البديهة في مجالس الأنس والسمر التي تكون عادة مصحوبة بشرب الخمرة لذلك نجد التغزل بالساقي من أكثر الموضوعات المطروقة فيها، ومن هذه المجالس مجلس الأمير حسام الدولة عبد الملك بن رزين (ت٤٩٦هـ)

---

[١] ديوان ابن خفاجة، تحقيق سيد غازي، ص٣٥٩، منشأة المعارف الاسكندرية، ط١، ١٩٦٠.

[٢] المهفهف: المرء الخفيف، المعاطف: الاعناق ونواصيها.

[٣] مصطلحات نقدية أصولها وتطورها إلى نهاية القرن السابع، رسالة ماجستير تقدم بها خير الله علي السعداني، ص٨١، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٧٤.

[٤] ينظر الذخيرة: ٤/١٦..

الذي طلب من وزيره أبي العلاء زهر بن أبي مروان (ت٥٢٥هـ)(١) أن يقول شعراً في ساقٍ جميل قد بدا عذاره، فقال الوزير على البديهة(٢):

تضاعفَ وجدي أنْ تبدى عذاره   ونمَّ فخان القلب مني اصطباره

وقد كان ظني إن سيمحق ليله   بدائع حسنٍ هام فيها نهاره

فاظهر ضدَّ صدَّه فيه إذ وشتْ   بعنبره في صفحةِ الخد ناره

واستزاده الأمير فقال بديهاً(٣):

مُحِيتْ آيةُ النهارِ فأضحى   بَدرُ تِمٍ وكان شمسَ نهار

كان يُعشي العيونَ نوراً إلى أن   شَغَلَ اللهُ خَدَّهُ بالعذارِ

وقد تعقد هذه المجالس بين الأصدقاء بعيداً عن أصحاب النفوذ يتطارح بها الندماء الشعر فمن هذه المجالس مجلس أبي الحسن سليمان بن الطراوة نحوي

---

(١) أبو العلاء زهر بن عبد الملك بن زهر الايادي الوزير الفيلسوف ترجمته في الذخيرة (١٧٢/٢).

(٢) ينظر: نفح الطيب: من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقري، تحقيق إحسان عباس، ٢٤٧/٣، دار صادر بيروت، ١٩٦٨م.

(٣) المصدر نفسه.

المرية (ت٥٢٨هـ)⁽¹⁾ فبينما كان مع ندمائه دخل عليهم غلام والكأس في يده فقال على البديهة⁽²⁾:

ألا بأبي وغير أبي غزالٌ أتى وبراحِهِ للشربِ راحُ

فقال مُنادمي في الحسن صِفه فقلتُ والشَّمسَ جاءَ بها الصباحُ

وقال فيمن جاء بالراح⁽³⁾:

ولّما رأيتُ الصبحَ لاحَ بخدهِ دعوتُهمُ رفقاً تَلحْ لكمُ الشمسُ

وأطلعها مثلَ الغزالةِ وهو كالـ ـغزالِ فتمَّ الطيبُ وأكتمل الأنسُ

وقد يطالعنا في هذه المجالس نوع آخر من البديهة وهو الإجازة ومعناه "أن ينظم الشاعر على شعر غيره في معناه ما يكون به تمامه وكماله"⁽⁴⁾.

وقد أكثر الأندلسيون من الأجازة وأولوها اهتمامهم حتى يقال إن المعتمد بن عباد (ت٤٨٨هـ) تزوج اعتماد الرميكية بعد إجازتها لشطر من

---

(1) هو سليمان بن محمد بن الطراوة الشيباني، كان إماماً في النجو (ترجمته في بغية الملتمس ت٧٧٩).

(2) نفح الطيب: ٣/٣٨٤-٣٨٥.

(3) المصدر نفسه.

(4) بدائع البدائه، علي بن ظافر الازدي، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم: ص٦١، المكتبة الانجلو مصرية-القاهرة، ١٩٧٠.

الشعر قاله المعتمد، وعجز عن اجازته الشاعر أبو بكر بن عمار (ت٤٧٧هـ)(١).

ومن بديع الأجازة ما حصل في مجلس الوزير أبي جعفر بن عباس وزير المنصور بن أبي عامر عندما قال الوزير في غُلام(٢):

مرض الجفون ولثغة في المنطقِ

وكان ابن شهيد حاضراً فأجازه بقوله(٣):

مَرضُ الجُفُونِ ولثغَةٌ بالمنطقِ   سيّانِ جَرَّا عشقَ من لم يعشَقِ

من لي بألثَغَ لا يزالُ حديثُهُ   يُذكي على الأكبادِ جمرَةَ محرقِ

ينبي فينبو في الكلامِ لسانُهُ   فكأنَّهُ من خمرِ عَينيهِ سُقي

لا يُنعشُ الألفَاظَ من عثرَاتها   ولو أنَّها كُتبتْ له في مُهرَقِ(٤)

وقد تقع الإجازة بين أكثر من اثنين مثلما حصل بين أبي عبد الله الشاطبي(٥) وأبي عثمان بن سعيد بن قوشترة(٦) وأبي بكر بن طاهر صاحب

---

[١] ينظر: نفح الطيب: ٤/٢١١

[٢] الذخيرة: ١/٢٣٧- ٢٣٨.

[٣] ديوان ابن شهيد: ١١٧.

[٤] المهرق: الصحيفة.

[٥] هو الوزير الكاتب أبو عبد الله الشاطبي كان فرداً في الكتابة والخطابة والشعر انظر المطرب ٢٦٦.

[٦] لم نجد له ترجمة.

كتاب "مشاحذ الأفكار في مأخذ النظار"[1] فقد قال ابن قوشترة في أبي القاسم بن عبد المنعم وكان وسيماً بجفونه زرقة وكان معهم:

عابوهُ بالزَّرقِ الذي بجفونهِ والماءُ أزرقُ والسِّنانُ كذلكا

فقال الشاطبي:

والماءُ يُهدي للنّفوسِ حياتَها والرمحُ يشْرعُ للمنونِ مسالكا

فقال أبو بكر بن طاهر:

وكذاك في أجفانه سببُ الردَّى لكنْ أرى طيبَ الحياةِ هنالكا"[2]

وعلق المقري (ت١٠٤٠هـ) صاحب نفح الطيب على هذه الاجازة بقوله: "وهذا من بارع الإجازة وكم لأهل الأندلس من مثل هذا الديباج الخسرواني رحمهم الله وسامحهم"[3]. وتعليق المقري هذا يدل على كثرة الاجازة بين الأندلسيين في هذا الغرض لا لشيء، وإنما لإثبات قدرتهم في القول على البديهة فضلاً عن إثبات قدرتهم في القول في مختلف الأغراض دون استثناء لذلك قلما نجد شاعراً أندلسياً لم يقل في هذا الغرض لنفي تهمة التقصير عن نفسه مما أسهم في شيوع هذا الغرض في الأندلس.

ثانياً- الباعث النفسي:-

---

[1]) هو المحدث الجليل أبو بكر محمد بن طاهر القيسي الاشبيلي، ترجمته في بغية الملتمس ت١٥١.

[2] نفح الطيب: ٢٢/٤.

[3] المصدر نفسه.

إذا كان قسمٌ من شعر الغزل بالمذكر قد قيل على سبيل التقليد الفني فإن القسم الآخر منه كان يعبر عن نزعة نفسية منها ما كان مرضياً يتمثل في عشقهم للغلمان والتعبير عن هذا الحب الشاذ شعراً. فقد تورط في هذا الحب عددُ من شخصيات الأندلس المرموقة "ويظهر أن المترلة الاجتماعية والدينية لم تكن تمنع صاحبها من الميل إلى الغلمان والتغزل بهم"(١)، فنجدهم شعراءً وملوكاً وأمراءً وقضاةً ورجال دينٍ يقعون في هذه المعصية، ونجد لهم قصصاً غريبة تظهر هذا الحب ومن هذه القصص ما دار بين الملك المقتدر بن هود (ت٤٥٠هـ) وأحد غلمانه واسمه يحيى بن يطفت "وكان في غاية الجمال والحلاوة والظُرف فعلق بقلب ابن هود وكتم حبه زماناً فلم ينكتم فكتب إليه:

يا ظَبيُ باالله قلْ لي متى تُرى في حبالي
يمرُّ عمري وحالي في خيبتي منك خالي

فكتب إليه الغلام على ظهر الرقعة:

إن كنتُ ظبياً فأنت الـ هزبرُ تبغي اغتيالي
وليس يخطر يوماً حلول غيلٍ ببالي

---

(١) الأدب الأندلسي في عصر الموحدين، حكمة الأوسي، ص١٨٩، مكتبة الخانجي، القاهرة،١٩٧٦.

ثم كتب بعدهما: هذا ما اقتضاه حكم الجواب في النظم، وأنا بعد قد جعلت رسني بيد سيدي، فعسى أن يقودني إلى ما أحب، لا ما أكره، والذي أحبّه أن يكون بيننا من المحبة ما يقضي بدوام الإخلاص، ونأمن في مغبته من العار والقصاص، فتركه مدة، ثم كتب له يوماً على الصورة التي ذكرناها:

ماذا ترى في يوم امنٍ طَرَّزتْ   حُللَ السحابِ بهِ البروقُ المُذهبهْ

وأنا وكأسي لا جليسٌ غيرهُ   ملآن لا يخلو إلى ان تشربهْ

والأنسُ إن يَسّرتَهُ متيسرٌ   ومتى تصعبه فيا ما أصعَبه

فأجابه:

يا مالكاً بذَّ الملوكَ بعلمهِ   وخلالهِ وعلوّهِ في المرتبهْ

وافى نَدَاك فحِرتُ عند جوابه   إذا ما تضمَّنَ ريبةً مستغربهْ

إنّا إذا نخلو، تَقوَّلَ حاسدٌ   وغدا بهذا الأمر ينصر مذهبهْ

هَبني إلى يوم تطيشُ به النُّهى   والبيضُ تُنضى والقنا متأشّبهْ(١)

---

(١) متأشبه: متضاربة

وهُناك فانظرني بعينٍ بصيرةٍ   فالشِّبلُ يعرفُ أصله من جرَّبَهْ

ثم علاه إلى درجة الوزارة والقيادة إلى أن قتل في الجيش وكان قدَّمه عليه فقال فيه من قصيدة:

يا صارماً أغمدَتُّهُ   عن ناظريَّ الصَّوارمْ

وزهرةً غيبتها   من الطيور كمائمْ

يا كوكباً خرَّ من أنـ   ـجمي وأنفي راغمْ

بكَتْ عليَّ وشقّتْ   جيوبُهنَّ الغمائمْ

قلْ للحمائمِ إنّي   أصبحت أحكي الحمائمْ

وانثُرُ الدمعَ مَهما   رأيت للزهرِ باسمْ

تالله لالذَّ عيشُ   لمترفٍ لك عادمْ"(١)

---

(١) نفح الطيب: ٣/٥٦١-٥٦٣.

هذه أحدى قصص الأندلسيين، وقد ذكرتها هنا كما وردت لأنها تبين لنا أَن من الأندلسيين من لم ينجرف مع هذه الموجة، فقد رفضَ غلام ابن هود هذا الحب الشاذ الذي يجلب العار لصاحبه، ورآه نقيصة من النقائص مع ما لابن هود من نفوذ وقوة، كما تبرز لنا أيضاً ظاهرة أخرى في الشعر الأندلسي هي رثاء الغلمان مما يدل على مدى عشق الأندلسيين لغلمانهم، فقد رثى الشاعر أحمد المقريني المعروف "بالكساد"(١) موسى مليح أشبيلية بقوله(٢):

هتَفَ الناعي بشجوِ الأبدِ إذ نعى موسى بن عبد الصمدِ

ما عليهمْ ويحهمْ لو دفنوا في فؤادي قطعةً من كبدي

ومن أشهر العشاق للغلمان وأكثرهم نتاجاً ابن سهل الإسرائيلي (ت٦٩٤هـ) الذي يعد "قمة الغزليين في هذا الباب افتناناً وإبداعاً وصدقاً"(٣)، فقد اشتهر بحبه لفتى يسمى موسى وقال فيه أكثر شعره ومن شعره فيه(٤):

---

(١) هو أبو العباس أحمد المقريني كان في اشبيلية في مدة منصور بني عبد المؤمن وكان وشاحاً وزجالاً ترجمته في (النفح- ٤/٢٩).

(٢) المغرب في حلى المغرب: ٢٨١/١.

(٣) الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، محمد مجيد السعيد، ص١٩٢، الدار العربية للموسوعات، بيروت – لبنان، ط٢، ١٩٨٥.

(٤) ديوان ابن سهل الإسرائيلي، تحقيق بطرس البستاني، ص٥٧، مكتبة صادر بيروت، ١٩٥٣.

مضى الوصل الاّ منيةً تبعث الأسى	أداري بها همي، إذا الليل عسعسا

أتاني حديثُ الوصل زوراً على النوى	أعِدْ ذلك الزورَ اللذيذ المؤنسَّا

ويا أيها الشوق الذي جاءَ زائراً	أصبت الأماني خذْ قلوباً وأنفسا

كساني موسى من سقامِ جفونهِ	رداءً وسقاني من الحب أكوسا

ومن يطلع على اشعار ابن سهل الإسرائيلي الأخرى في فتاه موسى يجد "من خلال قصائده الغزلية روح عفيفة تقترب من عذرية المشارقة، متجلية في الاكتفاء بتصوير المعاناة والألم والحرقة، ووصف السهد والسقم والجوى وذرف الدموع من أثر الصد والهجر"[1].

ولا نستطيع أن نقول إن جميع الاشعار التي قيلت بدافع نفسي ترجع إلى نزعة مرضية، وإنما هناك ما هو نابع عن نزعة غير مرضية، متمثلة في شغف الأندلسيين بالجمال وتتبعه أينما وجد في الطبيعة أو في المرأة أو الغلام، وهذه النزعة هي التي جعلت بعض الشخصيات الملتزمة دينياً وأخلاقياً وبعيدة عن الشبهات كل البعد تتورط في القول بهذا الغرض.

ومن هذه الشخصيات الفقيه ابن حزم الأندلسي (ت٤٥٦هـ) فقد قال عندما رأى غلاماً وسيماً[2]:

---

[1] الشعر في عهد المرابطين والموحدين: ١٩٦.

[2] نفح الطيب: ٨٢/٢.

وذي عَدلٍ فيمن سبانيَ حُسنهُ   يطيلُ ملامي في الهوى ويقولُ

أمنْ أجلِ وجهٍ لاحَ لم ترَ غيره   ولم تدرِ كيف الجسمُ انت عليلُ

فقلتُ له أسرفتَ في اللوم فاتّئدْ   فعنديَ ردٌّ لو أشاء طويلُ

ألم ترَ أنّي ظاهريٌّ، وأنّني   على ما أرى حتى يقومَ دليلُ

وإذا كان ابن حزم على مكانته قد قال في هذا الغرض سعياً وراء الجمال فما بالك بالشعراء الذين يعدون الجمال المادة الخام لأشعارهم لذلك نجدهم يتهافتون عليه أينما وجد ومما يؤكد كلامنا هذا تهافت الشعراء على التغزل بمليح أشبيلية "موسى" الذي وقع بغرامه ابن سهل الإسرائيلي فقد تغزل به غير شاعر منهم أحمد المقريني المعروف بالكساد بقوله(١):

ما لموسى قد خرَّ للهِ لّما   فاضَ نوراً غشاه ضَوء سناهُ

وأنا قدْ صُعقْتُ من نورِ موسى   لا أُطيقُ الوقوفَ حينَ أراهُ

---

(١) المصدر نفسه: ٤/٦١.

وممن تغزل به أيضاً أبو بكر بن حجاج الغافقي[1] في قوله (٢):

من مُبلغٌ موسى المليحَ رسالةً بُعثتْ لهُ من كافري عشّاقهِ

ما كان خلقٌ راغباً عن دينهِ لو لم تكن توارتهُ من ساقهِ

وتقدير الأندلسيين للجمال وعده من الصفات التي يمتدح بها هو الذي جعلهم يخرجون عن تقاليد المديح المتعارف عليها في المديح ويمدحون الرجل بجمال شكله وهو ما كانت العرب تستهجنه وترفضه إلا أننا نجد شاعراً كبيراً مثل ابن خفاجة يمدح الأمير أبا إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين ويذكره افتتاحه لمدينة لقورية وتنكيله لابن رذمير بقوله(٣):

الاّ هل أطلَّ الأمير الأجل أم الشمس حلّتْ برأسِ الحملْ

فما شئتَ من زهرةٍ نضرةٍ تردَّي القضيبُ بها واشتملْ

وهزَّ معاطفه والنوى بمسرى النَّسيم التواءَ الجدلْ

يشدُ اللثام على صفحةٍ ترى البدرَ منها بمرقى زحل

---

[1]) هو أبو بكر محمد بن أحمد بن حجاج الغافقي الأشبيلي من نبهاء الشعراء في صدر الدولة المصمودية ترجمته في المغرب ٢٦١/١.

[2]) المصدر نفسه: ١٢٥/٤.

[3]) ديوان ابن خفاجة: ١٠٢.

ومن مدح الملوك بجمال الوجه الفقيه أبو بكر بن عبد الرحمن المحاربي(١) (ت٥٤٢هـ) فقد مدح الملثمين ملوك المغرب بقوله(٢):

إذا لُثِّموا بالربطِ خلتَ وجوهَهم أزاهرَ تبدو من فتوقِ كمائمِ

فالشغف بالجمال كان حافزاً كبيراً على القول في غرض الغزل بالمذكر.

ثالثاً- الباعث الاجتماعي:

إذا كان الباعثان الفني والنفسي قد أسهما في ظهور أشعار الغزل بالمذكر في الأندلس فإن تقبل المجتمع الأندلسي له قد أسهم في شيوعه بوجهٍ لافت للانتباه في أشعارهم مما حدا بـ "غرسيه غومس" محاولة تعليل هذا الشيوع بأنه يرجع إلى "الخصائص المميزة للعقلية العربية، ورثته فيما ورثت من مشاعر البدو وميولهم"(٣) والرد المناسب على مزاعم غرسيه غومس هو خلو الشعر الجاهلي والإسلامي من هذه الأشعار مما يجعل هذا الغرض طارئاً على الأدب العربي وليس أصيلاً فيه.

ويمكن إرجاع قبوله إلى أنَّ الشعر الماجن الذي منه شعر الغزل بالمذكر يشيع "عندما يستبحر العمران، وترق الحضارة، وتقل ضوابط الجد في المجتمع، ويستنيم الناس ملوكاً وسوقة إلى الدعة والترف والاستمتاع بمباهج الحياة. عندئذ يستكثرون من مجالس الغناء واللهو والشراب، مع ميل إلى سماع الأدب

---

(١) هو أبو بكر غالب بن عبد الرحمن بن عطيه المحاربي فقيه حافظ شاعر ترجمته في (بغية الملتمس تسلسل ١١٠٣)

(٢) المطرب من أشعار أهل المغرب: ٩١.

(٣) الشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه، اميليو غرسيه غومسن ص٤٨، مطبعة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٥٢.

والشعر، ومن هنا يلج شعراء المجون إلى مثل هذه المجالس فيتكاثرون ويفتنون في صور شعرهم المجوني وأساليبه"(١). والمعروف أنَّ جمال طبيعة الأندلس ووفرة خيراتها قد هيأت للأندلسيين "حياة حضرية ناعمة أغرتهم بشتى وسائل اللهو والمجون وحررتهم من كثير من الأغلال والتقاليد الموروثة"(٢) فضلاً عن أنَّ المجتمع الأندلسي "مجتمع مستنبت وليس مجتمعاً أصيلاً ذا أعماق تشده وتقاليد تحد من غربه إذا ما انفلت جماحه وحادت عن الجادة أسبابه"(٣) فهو يتكون من عناصر عدة اختلط بهم العرب "وربما كانت البيئة المختلطة سبباً في ذلك فإن العرب لم يعرفوا الغزل بالمذكر إبان صفاء مجتمعهم من العناصر التي امتزجت به حتى ابتداء العصر العباسي"(٤).

ومظاهر تقبل المجتمع لهذا النوع من الشعر كثيرة جداً ولا تقتصر على الشعر الماجن فقط "بل يتعدى ذلك إلى أكثر المجالات وقاراً واصطناعاً للجد. وهو مجال مدح الخليفة"(٥). فقد جعل بعض الشعراء مقدمات قصائدهم في مدح الخلفاء بالغزل بالمذكر ومن هؤلاء إسماعيل الكاتب (ت ٣٥٦هـ) فقد جاء في مقدمة قصيدة مدح بها الخليفة الناصر الأموي (ت٣٥٠هـ)(٦):

لطفتْ أناملُهُ بعقربِ صدغهِ عمداً ليلدغَ في فؤادي العاشقِ

---

(١) الأدب العربي في الأندلس: ٢٥٥.

(٢) اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث: ١٩٥.

(٣) الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه: ٥١.

(٤) المصدر نفسه: ٥٣.

(٥) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، أحمد هيكل، ص٢١٥، دار المعارف بمصر، ط٦، ١٩٧١.

(٦) اخبار مجموعة من الأندلسيين، مجهول المؤلف، نشره لافونيتي الكترا، ١٦٤-١٦٥، مدريد، ١٨٦٨م.

وكأن شارَبه هلالٌ طَالعٌ   قد خطهُ بالمسك أحذق حاذقِ
وكأنما بجبينه شمسُ الضحى   قد قنعت بظلام ليلٍ غاسقِ
وكأن وجنته أزاهرُ روضةٍ   يندى بها السوسان فوقَ شقائقِ
فإذا تَلفَتَ قلتُ صورةَ دميةٍ   وإذا تَبسمَ قلتُ خطفةَ بارقِ
يا غايةَ الحسنِ الذي هو غايتي   كيف احتمالي في فؤادِ خافقِ
حكم الإله بما تراه فما أرى   من حيلةٍ في دفع حكم الخالقِ
قل للخليفةِ من أمية والذي   ما دون فيض نوالهِ منْ عائقِ
أنسيت من منصورها ورشيدها   وفضحت مهديها والواثقِ

وربما الذي شجع الشعراء على وضع هذه المقدمات في القصائد المدحية ما كان يجري في مجالس الملوك والأمراء من تشجيع للقول في هذا الغرض فنجد أميراً بمترلة الأمير محمد بن عبد الرحمن الأموي (ت٢٧٣هـ) يجزي عبد الله بن

عاصم صاحب الشرطة في قرطبة على أبيات قالها في غلام كان واقفاً بين يدي الأمير ثم أصبح الساقي في هذا المجلس وهذه الأبيات هي(١):

يا حَسنَ الوجهِ لا تكُنْ صَلِفاً ما لحسانِ الوجوهِ والصَّلفِ[٢]
تُحسنُ أن تُحْسنَ القبيحَ ولا ترثي لصبٍ متيمٍ دنفِ

و لم يكتف أمراء وملوك الأندلس بتشجيع الشعراء على القول في هذا الغرض بل نجدهم يسهمون في القول به أيضاً فهذا الأمير أبو المطرف عبد الرحمن بن الحكم (ت٢٣٣هـ) يتغزل بغلام أسمه بدر بقوله(٣):

انظُر إلى بدرٍ وكيف بدَا بصفحته العذارْ
فكأنه بدرُ التمام بدا به طرف السرار

ونجد المعتمد بن عباد يتغزل بغلام بدا عذاره بقوله(٤):

---

(١) نفح الطيب: ٣/٢٤٨.

[٢]) الصلف: التيه والكبر.

(٣) ينظر: المطرب من أشعار أهل المغرب: ١٣٧.

(٤) ديوان المعتمد بن عباد، جمعة وحققه: أحمد احمد بدوي وحامد عبد المجيد، ص١٧، المطبعة الأميرية بالقاهرة، ١٩٥١م.

تمّ لهُ الحسنُ بالعذار   واقترنَ الليلَ بالنَّهارِ

أخضرُ في أبيضٍ تبدَّى   ذلك آسي وذا بهاري

فقد حوى مجلسي تماماَ   أن يك من ريقهُ عقاري

وقد يتمادى الأندلسيون في هذا الموضوع أكثر فيتغزلون في أقدس الأماكن المتمثلة بدور العبادة وحلقات الدرس والتي يجب أن تكون بعيدة كل البعد عن هذا الموضوع وممن خاض بهذا الموضوع الأديب ابن فتوح(١)، فقد قص لنا ما دار في أحد المساجد عندما كان يسير في المسجد ومعه غلام كان قديم الامتزاج به فلقيه صديق ودارت بينهما محاورة بدأها صديقه بسؤاله: "إلى متى يدوم غرامك بهذا الغلام وهذه بنود عزله قد رفعت، وعُقدات خلعه قد عُقِدَتْ؟ فقلت: لا والله ما أرى بنود عزله، وعُقدات خلعه ولا عقدات خلعه، وإنما أرى لا ماتَ مسكٍ في صفحة كافور، وسطور دجى في مهارق نوره فولى عني وكتبت إليه:

أيها العاندُ المفندُ جهلا   في هوى من قوام نفسي هواه

أنت تلحى على قضيب لجين   عطفتني عن غير عطفاه

---

(١) ابن فتوح هو أبو المطرف عبد الرحمن بن فتوح من مشاهير الأدباء له شعر كثير من أعيان المائة المائة الخامسة ترجمته في الذخيرة ١/٥٨٥.

كان صبحاً لعاشقيه فلما   بقلت صفحتاهُ أعشي سناه
مثل ضوء الهلال يزداد ضعفاً   نوره إن دجتْ له أفقاه"(١)

"وأغلب الظن أن التعلق بالغلمان كان يبدو في نظر الأندلسيين أمراً طبيعياً ولا عيب فيه، ولا شذوذ"(٢) ففضلاً عما تقدم نجد من المؤدبين الذين يجب أن يكونوا على مستوى عالٍ من الأخلاق يتغزلون بالمذكر دون أن يؤثر ذلك على مكانتهم وعملهم فالمنجم مروان بن غزوان الذي كان مؤدباً للأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط نجده يتغزل به بقوله(٣):

أعلِّلُ نفسي بالمواعدِ والمنى   وما العيشُ واللَّذَّات الا محمَّدُ
بذاكَ سَبَى عقلي وهاجَ لي الجوى   ولم يسبِهِ حوْر أو انسُ نهَّد
ولكنْ غزالٌ عبشميٌّ سما به   أبٌ ماجدُ الاباءِ قرمٌ ممجدُ

---

(١) الذخيرة: ١/٥٩١-٥٩٢.

(٢) اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث: ٢٨.

(٣) المغرب في حلى المغرب:٢/٢٢-٢٣.

ويتبع هذه الخطى ابن السيد البطليوسي (ت٥٢١هـ)[١] الذي كان مؤدباً لأبناء الحاج صاحب قرطبة وهم رحمون وعزون، وحسون الذين تغزل بهم بقوله(٢):

أخفيتُ سُقِميَ حتى كادَ يخفيني   وهِمتُ في حبِّ عزُّونٍ فعزوني

ثم أرحموني برحمونٍ وإنْ ظمئتْ   نفسي إلى ريقِ حسّونٍ فحسُّوني

والغريب أننا لا نجد والد الأمير محمد أو صاحب قرطبة يعاقب هذين المؤدبين على جرأتهما مما يؤكد حقيقة أنَّ المجتمع الأندلسي قد تقبل هذا الغرض تقبلاً ساعدَ على انتشاره بين الأوساط الأندلسية خواصهم وعوامهم حكامهم ومحكوميهم مجانهم ورجال دين.

---

[١]) أبو محمد بن عبد الله بن السِّيد وهو من شلب ولكنه لازم مدينة بطليوس فعرف بالبطليوس وله تصانيف في النحو ترجمته في المغرب ١/٣٨٥.

[٢]) نفح الطيب: ٣/٢٨٧، ٤٥٩.

الفصل الثاني

الخصائص الفنية لأشعار الغزل بالمذكر

اللغة

اللغة عنصرٌ مهمٌ من عناصر النص الشعري "وعامل من أقوى العوامل التي تتوقف عليه قيمته الجمالية"(١) فاللغة "أشبه بحقل فارغ خصب، والشاعر هو الفلاح الموهوب الذي يستنبت منه أشجار الرمان والمشمش والليمون أمّا من لا موهبة له فقد تجمد الأرض بين يديه فلا تنبت شيئاً. ومعنى هذا أن اللغة نبع خصب، فهو يفيض ويغدق ويتدفق إذا عرف الشاعر كيف يستعملها، وينقبض ويشح وينضب إذا لم يتحسس بأسرارها"(٢) لذلك كان الاهتمام باللغة كبيراً وقدمها الكثير من القدماء على المعنى وأرجعوا جمال الشعر إليها ومن هؤلاء الجاحظ (ت٢٥٥هـ) بقوله "إن المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء.."(٣).

ولا يختلف رأي ابن طباطبا العلوي عن الجاحظ في تقديم اللفظ على المعنى في الشعر بقوله: "وللمعاني ألفاظ تشاكلها فتحسن فيها وتقبح في غيرها،

---

(١) النثر الفني واثر الجاحظ فيه، عبد الحكيم بلبع، ص٢١٦، مصر، مطبعة لجنة البيان العربي، ١٩٦٩.

(٢) سايكولوجية الشعر، نازك الملائكة، ص١١-١٢ دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد، ١٩٩٣.

(٣) الحيوان، الجاحظ عمر بن بحر، تحقيق عبد السلام هارون، ٣/٣٣١-٣٣٢، مكتبة الخانجي، القاهرة.

فهي لها كالمعرض للجارية الحسناء التي تزداد حسناً في بعض المعارض دون بعض"[1].

ونجد ابن خلدون (ت٨٠٨ هـ) ينص على أهمية اللفظ أيضاً بقوله: "اعلم إن صناعة الكلام نظماً ونثراً إنما هي في الألفاظ لا في المعاني وإنما المعاني تبع لها وهي أصل فالصانع الذي يحاول ملكة الكلام في النظم والنثر إنما يحاولها في الألفاظ.."[2].

ولأهمية اللفظ في جمال النص الشعري نجد الشعراء يتخيرون ألفاظهم إدراكاً منهم لقيمتها الجمالية.

"وإذا رجعنا إلى لغة الشعر الأندلسي، سنجد إن مقياس الذوق قد تغير كثيراً بعد أن تطور أسلوب حياة الشعراء، وتطورت بهم الحياة الاجتماعية، تلك الحياة التي كانت تسمع فيها خليط من اللغات واللهجات، فكان لا بد ان تتأثر لغتهم بهذه البيئة المتحضرة وأن تواكب هذا المجتمع الجديد"[3].

---

[1] عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي، تحقيق طه الحاجري ومحمد زغلول سلام، ص٨، شركة فن الطباعة-مصر، ١٩٥٦.

[2] مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، تحقيق ١/١١١٠، مكتبة الدراسة ودار الكتبة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٧.

[3] اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري: ٢٥٤.

ونتيجة لهذا التطور وهذا الاختلاط رقت اللغة وأصبحت سلسلة بعيدة عن التعقيد والغموض فلو نظرنا إلى قول الشاعر أبي حفص بن برد الأصغر(١) يتغزل بمحبوبه(٢):

بأبي أنتَ وأُمّي لمْ تطبّعتَ بِظلمي

أبداً تأتيَ بِعَتبٍ دون أن آتيَ بجرمِ

بيننا في الحُبِ قُربى سُقمُ عَينيكَ وجِسمي

سنجد أن لغته جاءت سلسلة واضحة لا تحتاج إلى شرح فضلاً عن كونها لغة رقيقة تنبض بالعاطفة.

وقبل النظر إلى الألفاظ الشائعة في اشعار الغزل بالمذكر يجب أن نعرف أنَّ الشعراء في تغزلهم بالمذكر يسيرون في اتجاهين الأول وصف شكل الغلام وهيئته ونجدهم في هذا الاتجاه يرددون سمات الجمال فهو أغيد في قول ابن عمار(٣):

---

(١) هو أبو حفص بن محمد بن أحمد بن برد من بيت أدب ورياسة من شعراء عصر الطوائف ترجمته في الذخيرة: ١/٣٧٤.

(٢) الذخيرة: ١/٣٩٠-٣٩١.

(٣) المطرب في أشعار أهل المغرب: ١٧٢.

وأغيدَ مِن ظباءِ الرُّومِ عاطٍ   بسالفتيهِ من دمَعي فريدُ

وهو فاتنٌ يختال في حلل الجمال في قول أبي جعفر[١] البيني[٢]:

من لي بغرةُ فاتنٍ يختال في   حلل الجمال إذا بدا وحليهِ

لو شمت في وضَّحِ النهارِ شعاعُها   ما عادَ جنحُ الليل بعدَ مضيهِ

وهو مهفهف هافي المعاطف أحور في قول أبي بكر محمد المالقي[٣] (ت٧٣٩هـ)[٤]:

ومهفهفٍ هافي المعاطفِ أحورٍ   فضحتْ اشعةُ نوره الاقمارا[٥]

وهو شادنٌ في قول أبي الحسن بن الزقاق[٦] (ت٥٣٠هـ)[٧]:

---

[١] هو أبو جعفر بن البيني كان شاعراً ماجناً ترجمته في مطمع الأنفس: ٩١ ونفح الطيب: ٤٨٧/٣.

[٢] نفح الطيب: ٢٢٨/٤.

[٣] هو أبو بكر محمد بن محمد بن عبد الله ابن مقاتل المالقي فقيه وأديب ترجمته في نفح الطيب: ٢٣٧/٦.

[٤] نفح الطيب: ٢٣٧/٦.

[٥] الهافي: الخفيف، المعاطف: الاعناق ونواصيها.

[٦] هو ابن الزقاق علي بن عطيه ابن أخت الشاعر الأندلسي. أبي إسحاق ابن خفاجة ترجمته المطرب: ١٠٠.

[٧] المطرب من أشعار أهل المغرب: ١٠٧.

ومقلةِ شادنٍ أودتْ بنفسي   كأن السقَم لي ولها لباسُ(١)

يسلُ اللحظُ منها مشرفَّياً   لِقتلي ثم يغمده النعاسُ

ويكاد يشترك الشعراء جميعاً في استخدام هذه الألفاظ في أشعارهم. وإلى جانب هذه الألفاظ نجدهم يكثرون من ذكر رموز الجمال كالشمس والقمر والبدر والهلال والجؤذر والظبي والريم والغزال... الخ.

فالغلام بدرٌ وشمس في قول أبي العلاء زهر بن عبد الملك بن(٢) زهر(٣):

مُحِيتُ آية النهارِ فأضحى   بدرَ تمٍ وكان شمسَ نهارِ

كان يُعشي العيونَ نوراً إلى أن   شَغلَ اللهُ خدَّهُ بالعذارِ

وهو هلال وريم في قول الرمادي(٤) (ت٤٠٣هـ)(٥):

جليسُك مَمَّن أتلفَ الحبُّ قلبَهُ   ويلذع قلبي حرقةٌ دونها الجمرُ

---

١) الشادن: الظبي قوي واستغنى عن أمه.

٢) هو الوزير أبو العلاء زهر بن عبد الملك بن زهر الايادي كان فيلسوفاً وطبيباً وشاعراً عاش في عصر المعتمد بن عباد ترجمته في (الذخيرة: ٢/١٧٢).

٣) الذخيرة: ٢/١٨١.

٤) هو أبو عمر يوسف بن هارون المعروف بالرمادي شاعرٌ قرطبي كثير الشعر سريع القول ترجمته ترجمته في (المطرب:٣).

٥) نفح الطيب: ٤/٤٠.

هلالٌ وفي غيرِ السماء طلوعُهُ   وريمٌ ولكنْ ليس مسكنه القفرُ

وهو جؤذرٌ حلو اللمى في قول ابن السيد البطليوسي(١):

نفسي الفداء الجؤذرٍ حُلو اللمّى   مستحسَنٍ بصدودهِ أضناني

في فيهِ سِمطا جوهرٍ يروي الضما   لو علَّني ببرودهِ أحياني

وهو ظبيٌ في قول أبي جعفر بن عبد الملك(٢) بن سعيد العنسي(٣):

أدارَ علينا الكأسَ ظبيٌ مهفهفٌ   غدا نَشرهُ واللونُ للعنبر الشحري

وزادَ لنا حُسناً بزهرِ كؤوسهِ   وحسنُ ظلامِ الليلِ بالانجمِ الزُّهرِ

أما الاتجاه الثاني وفيه وصف الشاعر حاله وما أصابه جراء صد المحبوب، وفي هذا الاتجاه نجد الشاعر يردد ألفاظ مثل الصد والهجر والألم والبكاء والدموع ومن شعر هذا الاتجاه قول ابن برد الأصغر(٤):

---

[١] المصدر نفسه: ٥٦٧/٣.

[٢] أبو جعفر بن عبد الملك بن سعيد العنسي شاعرٌ فذٌ ترجمته في نفح الطيب: ١٧٩/٢.

[٣] المصدر نفسه: ١٨٢/٤.

[٤] الذخيرة: ٣٩١/١.

يا كثيرَ الجفاءِ لي　　　ومُضيعاً وسائلي
طالَ حُبّي ولَم تفُزْ　　　مِنكَ نفسي بطائلِ
أنت هاجرٌ وإنْ　　　كنتَ في ثوبِ واصلِ
أنتَ امرَرْتَ منهلاً　　　كان أحلى مناهلي
سوف أبكيك لاستحا　　　لةِ تلك الشمائلِ
بجفونٍ قريحةٍ　　　ودموعٍ هواملِ

ومن شعر هذا الاتجاه أيضاً قول أبي حيان الأندلسي (ت٧٤٥هـ)(١):

أيا قضيب نقا من فوقه قمرٌ　　　متى أراك إلى المشتاق تنعطفُ
يا واحد الحسن هل من ناصرٍ لفتى　　　اذابه المقلقان: السهد والدنفُ
سباهُ منك عذارٌ أخضرُ فصبا　　　وهاجه الفاتنان: الذل والهيفُ
متيمٌ لم يزل بالحسن مفتتنا　　　أصابهُ الساحران: الغنج والوطفُ

---

[١] ديوان ابن حيان الأندلسي: ٦١.

يا عاذلي كفَّ عني أوفزد عذلاً   إني فتنتُ بمن في وجهه كلفُ
الوجهُ مع مهجتي إذ بانَ متفقٌ   والنوم مع مقلتي مذ غاب مختلفُ

ويكثر في هذا الاتجاه الخضوع للمحبوب والتذلل له لينال المحب عطفه ورضاه بلغة رقيقة منكسرة وهذا ما نلمسه في قول ابن سهل الإسرائيلي(١):

خضعت وأمرك الأمرُ المطاع   وذاع السرُّ وانكشف القناعُ
وهل يخفى لذي وجدٍ حديثُ   أتخفى النارُ يحملها اليفاعُ؟(٢)
اشاعوا أنني عبدٌ لموسى   نعم: صدقوا عليَّ بما أشاعوا
وقد سكت الوشاة اليوم عني   اقرَّ الخصم وارتفع النزاع

---

[1] ديوان ابن سهل الإسرائيلي: ٦١.

[2]) اليفاع: ما ارتفع من الأرض.

وقد نجد من الشعراء من يتذلل لمحبوبه أكثر حتى يخرج عن حدود الدين كما في قول أبي جعفر أحمد بن قادم القرطبي[1]:[2]

وفَّى لنا أَلِفاً وكلـ   ـم فأنثى أدباً كلام
فلثمتُ منهُ موطئ النَّـ   ـعلِ الذي فوقَ الرغامْ
وطفقتُ أملأ جانبيـ   ـهِ من اعتناق الإسلام
فكأنني قد طفتُ منـ   ـه هناك بالبيت الحرامْ
ووردت زمزم كوثرٍ   ولثمتُ أركان المقامْ

ولغة الغزل بالمذكر لا تختلف عن لغة الشعر الأندلسي عامة من حيث تأثرها بجمال الطبيعة الأندلسية لا من حيث الرقة والسلاسة فحسب بل من حيث النهل من معجم الألفاظ الخاص بالطبيعة أيضاً. فقد حفلت أشعارهم

---

[1] هو أبي جعفر أحمد بن قادم القرطبي: قال عنه ابن سعيد أنه اية في الشعر والتوشيح ترجمته في المغرب ١/١٤١.

[2] المغرب في حلى المغرب: ١/١٤٢.

بألفاظها كالرياض، والورد والزهر والاقاح والسوسن والنرجس والبنفسج والشقائق والغصن..الخ.

ومن هذه الأشعار قول ابن عمار(١):

هوَيتُهْ يسقي المدامَ كأنّهُ قمرٌ يدورَ بكوكبٍ في المجلس

متناوحُ الحركاتِ يُندى عطفه كالغصنِ هزَّتهُ الصَّبا بتنفُّسِ

يسقي بكأسٍ من أناملِ سَوسنٍ ويديرُ أخرى من محاجرِ نرجسِ

والأشعار التي تضمنت هذه الألفاظ كثيرة جداً ومبثوثة في هذا البحث.

وإذا امتازت الأمثلة السابقة بالرقة والعذوبة فأننا وبالمقابل نجد أشعاراً حافلة بالألفاظ الفاحشة التي تمجها الأذواق لذلك رأيت ان لا أذكرها في هذا البحث واكتفي بذكر أسماء بعض شعرائها ومنهم ابن شهيد الأندلسي وابن الابار الاشبيلي وابن خروف(٢) وابن السيد البطليوسي.

---

[١] نفح الطيب: ٣٢٨/٣.

[٢]) هو أبو الحسن علي بن يوسف بن خروف القرطبي شاعر مشهور في العراق في الشرق والغرب ترجمته في المغرب ١٣٦/١.

الصورة الفنية

حظيت الصورة الفنية باهتمام النقاد والباحثين وشغلت حيزاً واضحاً في بحوثهم ودراساتهم كما أدرك الأدباء والشعراء أهميتها في العمل الأدبي يتم نقل الأفكار والعواطف من مخيلة الشاعر إلى حيز الوجود الخارجي لذلك نجد بعضهم يعدون الشعر في جوهره تعبيراً بالصور فالجاحظ يرى أنَّ "الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير"(١). ويرى ابن الأثير (ت٦٣٧هـ) "أنَّ المجاز أولى بالاستعمال من الحقيقة في باب الفصاحة والبلاغة، لأنه لو لم يكن كذلك، لكانت الحقيقة التي هي الأصل أولى منه، حيث هو فرع عليها، وليس الأمر كذلك؛ لأنه قد ثبت وتحقق أن فائدة الكلام الخطابي هو إثبات الغرض- المقصود في نفس السامع بالتخييل والتصوير حتى يكاد ينظر إليه عياناً"(٢) ونستنتج من هذا الكلام أَنَّ المجاز هو الطريق الذي ينقلنا بحق إلى عالم الفن فهو يثيرُ فينا مدارك ومعارفَ خيالية جديدة كانت خافية علينا، أو ربما هي أمامنا في الواقع ولكن الشاعر بصوره يدلنا عليها.

أما ابن خلدون فيرى أن "الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي"(٣) فالشعر في نظر ابن

---

(١) الحيوان: ٣/ ٣٣٢.

(٢) المثل السائر، ابن الأثير، تحقيق أحمد الحوفي، وبدوي طبانه، ١٥/٤١٠-٤١١، النهضة العصرية، القاهرة، ط١، ١٩٥٩.

(٣) المقدمة، ١٠/١١٠٤.

خلدون هو ما كان مبنياً على الاستعارة والأوصاف، وما الاستعارة والأوصاف إلا رسم الصور بالكلمات.

وقد أدرك شعراء الأندلس أهمية الصورة في الشعر عامة وموضوع الغزل بالمذكر بصورة خاصة فقد "عمد الشعراء في هذا اللون من القول إلى التفنن في إبداع الصور التي يقدمونها وكأنهم قد أحسوا في أعماق لا شعورهم.

إِن الموضوع الذي يطرقونه كريه على النفس بعيد عن الذوق شاذ عن طبيعة الإنسان، من أجل ذلك حاولوا قدر جهدهم أن ينمقوا القول فيه ويقدموا معانيهم في ثوب مزركش"(١).

وتعتمد الصورة الفنية في هذا الغرض اعتماداً كبيراً على عنصري التشبيه والاستعارة.

فالتشبيه له أهمية كبيرة في التعبير عن التجربة الشعرية فمع "ما فيه من ميزة الإيجاز في اللفظ يفيد المبالغة في الوصف ويخرج الخفي إلى الجلي والمعقول إلى المحسوس، ويجعل التافه نفيساً والنفيس تافهاً، ويدني البعيد من القريب ويزيد المعنى وضوحاً، ويكسبه تأكيداً، فيكون أوقع في النفس وأثبت، وله روعة الجمال والجلال"(٢).

---

[١] الأدب الأندلسي فنونه وموضوعاته: ٥٣.

[٢] جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، السيد أحمد هاشم، ص٢٤٧، دار الفكر- بيروت، ط١٢، ١٩٧٨.

أما الاستعارة فالاهتمام بها نابع من كونها أقدر وأبلغ على التعبير من التشبيه كما أنها "تبرز هذا البيان أبداً في صورة مستجدة تزيد قدره نبلاً، وتوجب له بعد الفضل فضلاً"(١). ومعظم الصور في أشعار الغزل بالمذكر تنصب على وصف الغلام من حيث الشكل والهيئة، ومعظم الأوصاف الذي رددوها مشابهة لنظريتها في الغزل بالمؤنث فقد صوروا الأوصاف الجسدية، والمفاتن الحسية وتغزلوا بالعيون والقوام وشبهوا الغلام بالهلال والشمس والظبي(٢). ومن هذه التشبيهات قول ابن عبد ربه في ساقٍ(٣):

أهدَتْ إليكَ حُمّياها بكأسينِ شمسٌ تدبرتَها بالكفِّ والعينِ

يَسعى بتلك وهذي شادنٌ غَنِجٌ كأنَّهُ قمرٌ يَسعى بنجمينِ(٤)

كأنَّهُ حينَ يمشي في تأوُّدِهِ قضيبُ بانٍ تثنى بين ريحينِ

---

[١] اسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد رشيد رضا، ص٣٢-٣٣، دار المعرفة- بيروت، ط٢، ١٤٠٤هـ.

[٢] ينظر الشعر في طل بني عباد، محمد مجيد السعيد، ص١٥٣، مطبعة النعمان، النجف، ١٩٧٢.

[٣] ديوان ابن عبد ربه: تحقيق محمد رضوان الداية، ص١٦٨، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ط١، ١٩٧٩.

[٤] الغنج: المتدلل.

وقد يلجأ الشاعر إلى الاستعارة في رسم صورة الغلام فيستعير بعض الصفات من رموز الجمال كالشمس والغزال والظبي...الخ لرسم صورة محبوبه كقول أبي حيان الأندلسي(١):

أعبد الرحيم أنا في جحيم   فهل من رحيم لصبٍ غريب

أطلت البعادَ، منعت الرقاد   سلبت الفؤاد بحسنٍ عجيبِ

بسرِّ الجمالِ ونور الهلال   ولحظ الغزال،وقد القضيبِ

وتشبيه الغلام بالقمر وتثنيته بتأود الغصن واستعارة نور الهلال ولحظ الغزال وقد القضيب يعد من الصور التقليدية المتداولة بين الشعراء مشارقة وأندلسيين إلا أننا وبالمقابل نجد من الشعراء من يبحث عن الجدة والابتكار في الصورة وفي مقدمتهم الرصافي البلنسي (ت٥٧٢هـ) الذي عُرف بإظهار مقدرته الفنية في النقل والتصوير والاختراع في غزله الغلماني وهذا ما نلمسه في مقطوعته في الغلام الحائك(٢):

قالوا وقدْ أكثروا في حبِّهِ عَذَلي   لو لم تهمْ بمذالِ القدرِ مُبتذلِ(٣)

---

[١]) ديوان أبو حيان الأندلسي: ١١١.

[٢] ديوان الرصافي البلنسي، جمعة وقدم له احسان عباس، ص١٢١، دار الثقافة– لبنان، ١٩٦٠.

[٣]) مذال: ممتهن مبتذل.

فقلْتُ لو أنَّ أمرِي في الصِّبابةِ لي   لأخترْتُ ذاك، ولكنْ ليسَ ذلك لي

علقّتُهُ حَبَبيَّ الثغرِ عَاطِرهُ   أَلَمى المُقبَّلِ أَحوَى ساحِرَ المُقلِ(١)

إذا تأمَّلتَهُ أَعطاكَ مُلتفتاً   ما شئتَ منْ لحظات الشادنِ الغزلِ

غزيِّلٌ لم تزلْ في الغزل جائلةً   بنانُهُ جولان الفكر في الغَزَلِ

جذلانُ تلعبُ بالحواكِ أنملُهُ   على السَّدى لَعِبَ الأيّام بالدُّولِ

ما أن يني تعبَ الأطرافِ مشتغلاً   أَفدِيهِ منْ تعبِ الأطرافِ مُشتغلِ

جذباً بكفيَّه أو فحصاً بأخمَصِهِ   تَخبُّطَ الظبي في أَشراكِ محتبلِ(٢)

وتظهر هذه المقطوعة براعة الرصافي البلنسي في التصوير فقد افتتحها بحوار بينه وبين عذاله ليزيد التشويق لمعرفة أسباب غرامه بالحائك والتي تعود إلى شكل الغلام وهيئته فهو شادن حوى ساحر المقل ثم نراه يستخدم مخيلته لوصف هيئته وهو يحوك فأصابعه تجول بالغَزلِ كما يجول الفكر بالغَزلِ وحركة يديه وهو يجذب الغزل ويشده عند الحياكة تشبه حركة الظبي وهو واقع في الاشراك.

---

(١) حببي: يشبه الحبب أي ثغرة نقي، أحوى: اسود.

(٢) محتبل: صائد.

وهذه التشبيهات تعد من التشبيهات المبتكرة التي دعت الشقندي (ت٦٢٩هـ)(١) للتباهي بها في رسالته "في فضائل أهل الأندلس"(٢).

ونجد البحث عن الجدة والابتكار في وصف ابن صارة الشنتريني (ت٥١٧هـ)(٣) لغلام بقوله(٤):

ومهفهفٍ أبصرتُ في أطواقِهِ قمرا بآفاَق المحاسنِ يُشرقُ

تقضي على المُهجاتِ منه صَعدَةَ متألِّق فيها سنانٌ أزرقُ

فقد استعار لون السنان لعيون محبوبه الزرقاء التي تقضي عليه كما يقضي الرمح على المهج.

وقد أكثر شعراء الأندلس من وصف شكل الغلام وهيئته و لم يتركوا شيئاً فيه إلا وصفوه فقد وصفوا العذار والخيلان والشجة بالوجه وحمرة الوجه والكلف...الخ.

---

[١]) هو أبو الوليد إسماعيل بن محمد ولي القضاء بيابسة وقضاء لورقة ومات في اشبيلية ترجمته في الذخيرة: ٦٣٣/٢.

[٢]) ينظر نفح الطيب: ١٨٦/٣.

[٣]) هو ابو محمد عبد الله بن محمد بن صارة (سارة) الشنتريني ثائر وشاعر مفلق من سكان أشبيلية (ترجمته في الذخيرة: ٦٣٠/٢).

[٤]) الذخيرة: ٦٣١/٢.

وأكثر ما تطرقوا إليه في غزلهم بالمذكر هو وصف العذار وممن وصفه ابن عبد ربه بقوله(١):

يا ذا الذي خطَّ الجمال بخدَّه خطّين هاجا لوعةً وبلابلا

ما صحَّ عندي إن لحظك صارمٌ حتى لبست بعارضيك حمائلا

ومع إن وصف اللحاظ بالصارم متداول بين الشعراء إلا أنه زاد بالمعنى عندما وصف العذار فقد استعار حمالة السيف للعذار لتأكيد التشبيه.

وقد تفنن شعراء الأندلس في وصف العذار وشبهوه بأشياء غريبة. فنجد أبا الحسن علي بن عمر بن عبد الله بن غالب يشبهه بأرجل النمل بقوله(٢):

ومُهفهفٍ خَنِث الجفونِ كأنَّما من أرجلِ النَّملِ استَفاد عذارا

فتخالُه ليلاً إذا استَقبلتَهُ وتخالُ ما يجري عليه نهارا

ويغرب ابن خفاجة أكثر في تشبيه العذار بقوله(٣):

---

(١) ديوان ابن عبد ربه: ١٤١.

(٢) المطرب من اشعار أهل المغرب: ٨٩..

(٣) ديوان ابن خفاجة: ١٩٠.

هلْ ساءهُ أن آل آساً وردهُ   وتعطلت من فيه كأسٌ تشربُ
وكأن صفحته وبدءَ عذارهِ   ماءٌ يثورُ بصفحتيه طحلبُ

فقد شبه ظهور العذار في صفحه الخد بماء يثور بصفحتيه طحلب وهو من غريب تشبيهات العذار "ولا يخفى ما في البيتين من صور وتشبيهات مستوحاة من الطبيعة فالآس والورد والنهر والماء والطحلب، كلها من عناصرها ومظاهرها"(١). والحقيقة أن الطبيعة الأندلسية كان لها حصة كبيرة من الصور الشعرية في الشعر الأندلسي ومنها قول أبن عبد ربه(٢):

ومعذرٍ نقش الجمالُ بمسكهِ   خدّاً لهُ بدمِ القُلوبِ مضرَّجا
لما تيقَّنَ أنَّ سيفَ جُفُونهِ   من نرجسٍ جعلَ النجادَ بنفسجا

وإذا كانت الصور السابقة جميعها حسية جاءت في وصف الغلام فأننا نجد من حاول أن يصور لنا مشاعره وأحاسيسه الداخلية اتجاه محبوبه وإن كانت هذه الصور قليلة مقارنة بالسابقة إلا أنها موجودة ومنها قول ابن سهل الإسرائيلي(٣):

---

(١) الشعر في عهد المرابطين والموحدين في الأندلس: ١٨٨.

(٢) ديوان ابن عبد ربه: ٣٨.

(٣) ديوان ابن سهل الإسرائيلي: ٩٣-٩٤.

وما وجدُ أعرابيّة بان أهلها فحنت إلى بانِ الحجاز ورندهِ(١)

إذا آنست ركباً تكفل شوقها بنارٍ قراه، والدموع بوردهِ

وإن أوقد المصباح ظنتهُ بارقاً يضيء فهشت للسلام وردّه(٢)

بأعظم من وجدي بموسى وإنما يرى أنني أذنبت ذنباً بودهِ

يصور لنا في هذه الأبيات وجد الشاعر بمحبوبه فهو أعظم من وجد أَعرابية بعيدة عن أهلها ووطنها وهي تحن لهم في كل لحظة وتترقب أي خبر منهم فإذا ما آنست ركباً ازداد شوقها إليهم وإن رأت مصباحاً موقداً تذكرت البرق الحجاز فهشت للسلام على من أوقده وفي هذه الأبيات نقل لنا ابن سهل مشاعره بصدق تام وبصورة معبرة وربما كان السبب في تضمين شعره هذه الصور أنه كان يعيش تجربة حب حقيقية وإن كانت شاذة.

---

(١) الرند: شجر طيب الرائحة.

(٢) هشت: فرحت.

الموسيقى

الموسيقى ركنٌ أساسٌ من أركان الشعر في جوهره ولبه وبدونها لا يكون الشعر شعراً فمن خلالها يعيد الشعر "النظام الطبيعي لمشاعرنا وأحاسيسنا بما يحدث فيها من التساوق الموسيقي الذي ينشره فينا مادياً ومعنوياً، بما يتيح لها من التلحين المطرب الذي تلتحم معه، بل الذي تتألف مع رناته وإيقاعاته وكأنما أعيد لها بنياها الفطري السليم"(١).

وقد نص القدماء على اهميتها في الشعر من خلال تعريفهم للشعر فقد عرفه قدامة بن جعفر بأنه: "قول موزون مقفى يدل على معنى"(٢).

وجعلها ابن طباطبا الحد الفاصل بين الشعر والنثر بقوله عن الشعر: "كلام منظوم بائن عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباهم بما خص به من النظم الذي عُدل عن جهته ومجته الأسماع وفسد على الذوق ونظمه معلوم محدود"(٣). ولا يختلف الأندلسيون عن المشارقة في عد الموسيقى أهم أركان الشعر وبدونها لا يعد الشعر شعراً وهذا ما نص عليه حازم القرطاجني

---

(١) فصول في الشعر ونقده، شوقي ضيف، ص٢٨، دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٧١.

(٢) نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجة، ص٦٤، دار العلمية – بيروت.

(٣) عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي، تحقيق طه الحاجري ومحمد زغلول، ص٣، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٥٦.

(ت٦٨٤هـ) بقوله: "الشعر كلام موزون مقفى من شأنه أن يحبب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها ويكره إليها ما قصد تكريهه"(١).

واتبعه ابن خلدون بقوله: "الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي... فهو الكلام الموزون المقفى(٢)".

لذلك نجد الشعراء يولون جانب الموسيقى أهمية كبيرة ويحرصون على أن تكون الموسيقى مناسبة للغرض الشعري الذي يرومون القول فيه سواء كانت هذه الموسيقى متأتية من الوزن والقافية أو متأتية من الألفاظ نفسها أو من تجاورها مع بعضها البعض. ولما كانت أشعار الغزل بالمذكر من الموضوعات التي نشأت في أحضان مجالس اللهو والخمر والتي عادة ما تكون مصحوبة بالموسيقى والغناء وقد كانت أشعار الغزل بالمذكر مادة الغناء في كثير من الأحيان، مما حدا بالشعراء إلى اختيار الأوزان الخفيفة والقصيرة أو المجزوءة التي تلائم الغناء.

أما القوافي فكانوا يميلون إلى القوافي المطلقة "الحركة" التي تتلاءم مع الغناء، وخير مثال على ذلك ديوان ابن سهل الإسرائيلي الذي أكثر فيه من غرض الغزل بالمذكر حتى بلغ ثلثي الديوان ولا نجد في هذين الثلثين سوى ثلاث قصائد قافيتها مقيدة فقط.

---

(١) منهاج البلغاء وسراج الادباء، حازم القرطاجني، تحقيق محمد حبيب الخوجة، ص٧١، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨١.

(٢) المقدمة: ١١٠٤.

والأندلسيون في هذا الجانب لا يختلفون عن المشارقة في اختيار البحور الشعرية الخفيفة أوفي اختيار القوافي إلا أن الموسيقى الشعرية لا تتأتى من القافية أو الوزن فقط.. لذلك نجد الشاعر "يتوسل لتحقيق الإبداع النغمي بما يخلق تأثيراً في نفوس السامعين بوسائل عديدة وطرق مختلفة"(١) منها اختيار الألفاظ السلسة الرقيقة التي تكون حروفها بعيدة عن التنافر كقول أبي جعفر البيني(٢):

كيفَ لا يزدادُ قلبي   من جَوى الشوقِ خَبالا

وإذا قُلتُ عَليٌّ   بَهَرَ النّاسَ جمالا

هو كالغُصنِ وكالبَد   رِ قَواماً واعتدالا

أشرقَ البَدرُ كمالا   وانثنى الغصنُ اختيالا

ونلاحظ هنا رقة وسلاسة هذه الألفاظ ولا يخفى على القارئ أنَّ رقة هذه الألفاظ متأتية من تلاؤم حروفها والبعد عن التنافر "والتلاؤم وتعديل الحروف في التأليف، والتنافر سببه البعد الشديد أو القرب الشديد في مخارج

---

(١) الشعر في عهد المرابطين والموحدين: ٣٤٧.

(٢) نفح الطيب: ٤/٢٢٩.

الحروف في التأليف، فإذا حسن تأليف اللفظة حسن الكلام"(١)، "والفائدة في التلاؤم حسن الكلام في السمع وسهولته في اللفظ، وتقبل المعنى له في النفس لما يرد عليها من حسن الصورة وطريق الدلالة"(٢).

ومثلما عُنِي شاعر الغزل بالمذكر بحروف اللفظة الواحدة عنيَّ أيضاً بتلاؤم الألفاظ بعضها مع بعض بحيث نراه كثيراً ما يختار كلمات الشطر أو كلمات البيت من حروف معينة قد تكون مكررة وقد تكون قرابة صوتية تشد كلمات البيت بعضها إلى بعض وتصل بنا إلى الكلمة الأخيرة في البيت وصولاً طبيعياً وهذا ما نلمسه في قول ابن خفاجة(٣):

وأغيد في صدر الندى لحسنه   حليٌّ وفي صدرِ القصيد نسيب

من الهيف أما ردفُهُ فمنعمٌ   خصبٌ وأما خصره فجديبُ

ترفٌ بروض الحسن من نور وجهه   وقامته نوارةٌ وقضيبُ

جلاها وقد غنى الحمام عشية   عجوزاً عليها للحباب مشيبُ

---

(١) جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب، ماهر مهدي، ص١٤٨، دار الرشيد للنشر، العراق، ١٩٨٠.

(٢) النكت في اعجاز القرآن، أبي الحسن علي بن عيسى الرماني، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، ص٨٧-٨٨، دار المعارف بمصر.

(٣) ديوان ابن خفاجة: ٨٣.

نجد في هذه القطعة تلاؤم صوتي فضلاً عن رقة الألفاظ وسلاستها نجد تكرار بعض الحروف في الأبيات مما يعزز موسيقى الأبيات فقد تكرر حرف الدال كثيراً في البيت الأول فقد جاء في "أغيد، صدر، الندى، صدر، القصيد".

أما في البيت الثاني فنجد ابن خفاجة يكرر الهاء والفاء فقد جاء في "الهيف، ردفه، فمنعم، خصره، فجديب".

أما في البيت الثالث فنجده يكرر حرف الراء فقد جاء في "ترف، نوار، نوارة".

وفي البيت الرابع نجده يكرر حرف الألف في "جلاها، غنى، الحمام، عليها، الحباب".

ومن الوسائل الأخرى لتعزيز الموسيقى تكرار الألفاظ "والتكرار في التعبير الأدبي هو تناوب الألفاظ وإعادتها في سياق التعبير بحيث تكون نغماً موسيقياً يتقصده الناظم في شعره أو نثره"(١). ونلمس هذه الموسيقى في قول أبي الوليد بن حزم(٢):(٣)

مرآك مرآك لا شمسٌ ولا قمرٌ   وورد خديك لا وردٌ ولا زهرٌ

---

[١] جرس الألفاظ ودلالتها: ٢٣٩.

[٢] هو أبو الوليد محمد بن يحيى بن حزم أحد أعيان أهل الأدب في الأندلس ترجمته في الذخيرة (٤٤٦/٢).

[٣] نفح الطيب: ٤٣٥/٣.

فقد تكررت معظم ألفاظ البيت مما جعل الأصوات منسابة وكأنها لحنٌ تتكرر نغماته، ونلمس هذه الانسيابية في قول أبي الأصبغ بن رشيد(١) الاشبيلي(٢):

غزاليُّ الجفونِ شقيقُ بدرٍ تبسَّمَ عن عقيقٍ فوقَ دُرِّ

لهُ نفحاتُ مسكٍ أيُّ مسكٍ له نفثاتُ سحرٍ أيِّ سحرِ

فلا يخفى ما أضافه تكرار كلمة "مسك" و "سحر" و "أيُّ" من موسيقى للبيتين فضلاً عن الموسيقى الناجمة من استعمال الشاعر لأحد الأساليب البلاغية المتمثل بفن الجناس فقد جانس بين شقيق وعقيق وبين بدر ودر وبين نفحات ونفثات.

والحقيقة إن الجناس سواء كان تاماً أو ناقصاً "ضرب من ضروب التكرار المؤكد للنغم في التشابه الكلي أو الجزئي في تركيب الألفاظ، فهذا التشابه في الجرس يدفع الذهن إلى التماس معنى تنصرف إليه اللفظتان بما يثيره من انسجام بين نغم التشابه اللفظي ومدلوله على المعنى في سياق البيت"(٣).

لذلك نجد الشعراء يلجأون إليه كثيراً ومنهم ابن خفاجة في قوله(٤):

---

١) هو أبوالاصبغ بن رشيد الاشبيلي الوزير الأديب ترجمته في (المطرب: ٩٦).

٢) المطرب من اشعار أهل المغرب: ٩٦.

٣) جرس الألفاظ: ٢٨٤.

٤) ديوان ابن خفاجة: ٤٤٨.

علقته أحوى اللمى أحورا عاطرَ أنفاس الصبا عاطلا

معتدلاً معتدياً في الهوى أحبب به معتدلا مائلا

فقد جانس بين أحوى وأحور وبين عاطر وعاطل وبين معتدلاً ومعتدياً والأمثلة على عناية المتغزلين بالمذكر بموسيقى أشعارهم كثيرة جداً تكاد تشمل جميع ما ذكر في هذا البحث.

الخاتمة

وأهم ما توصل إليه البحث:

١- كان وراء شيوع ظاهرة الغزل بالمذكر في الأندلس بواعث عدة أهمها:

أ- الباعث الفني المتمثل بمحاولة الشعراء إثبات مقدرتهم الفنية سواء كان هذا الإثبات عن طريق محاكاة كبار الشعراء الذين قالوا في هذا الغرض أمثال أبي نواس أو اثباتها عن طريق المقدرة بالقول على البديهة في أي غرضٍ يطلب من الشاعر وقد كان هذا الباعث وراء معظم الأشعار التي قيلت في هذا الغرض.

ب- الباعث النفسي سواء كان هذا الباعث ناجماً عن نزعة مرضية متمثلة في حب بعض الشعراء للغلمان شذوذاً وهم قلة وكان ناجماً عن نزعة غير مرضية متمثلة في سعي الشعراء وراء الجمال ووصفه سواء كان ذكورياً أو انثوياً.

جـ- الباعث الاجتماعي المتثل بقبول المجتمع الاندلسي لهذا الغرض والخوض فيه مما أسهم في شيوعه بين مختلف فئات الشعب حكاماً ومحكومين مجاناً ورجال دين.

٢- لم تختلف لغة الغزل بالمذكر في الشعر الاندلسي عنها في الأغراض الأخرى من حيث الرقة والسلاسة والوضوح. أما معجم الألفاظ لهذا الغرض فقد جاء مشابهاً لنظيره في الغزل بالمؤنث فضلاً عن استلهامهم لألفاظ الطبيعة الأندلسية.

٣- حظيت الصورة الفنية في هذا الغرض بعناية كبيرة من حيث البحث عن الجدة والابتكار، وكان للتشبيه والاستعارة النصيب الأوفر منها.

٤- اختار الشعراء لهذا الغرض الأوزان الخفيفة والمجزوة التي تصلح للغناء.

٥- كان للموسيقى الداخلية في هذا الغرض النصيب الأوفر من العناية تمثلت هذه العناية باختيار الألفاظ الرقيقة التي بين حروفها قرابة صوتية فضلاً عن تكرار بعض الحروف أو الكلمات لتأكيد النغم في البيت الشعري.

قائمة المصادر والمراجع

١- ابن شهيد الأندلسي حياته وأدبه، حازم عبد الله، دار الشؤون الثقافية للتأليف والنشر، العراق، ١٩٨٤م.

٢- اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري، نافع محمود، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠م.

٣- اخبار مجموعة من الأندلسيين، في تاريخ الأندلس، مؤلفه مجهول، نشره لافونيتي الكنترا، مدريد، ١٨٦٨م.

٤- الأدب الأندلسي فنونه وموضوعاته، مصطفى الشكَعة، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٧٩م.

٥- الأدب الأندلسي في عصر الموحدين، حكمة الأوسي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٦م.

٦- الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، أحمد هيكل، دار المعارف بمصر، ط٦، ١٩٧١م.

٧- الأدب العربي في الأندلس، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، مصر.

٨- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد رشيد رضا، دار المعرفة بيروت، ط٢، ١٤٠٤هـ.

٩- الإسلام في المغرب والأندلس، ليفي بروفنسال، ترجمة محمد عبد العزيز سالم، نهضة مصر ١٩٥٧.

١٠- أسطورة الأدب الرفيع، علي الوردي، مطبعة سعيد بن جبير، قم، ٢٠٠٠م.

١١- بدائع البدائة، علي بن ظافر الازدي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، ١٩٧٠م.

١٢- التجديد والتطور في الشعر الأموي، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط٢، دون سنة طبع.

١٣- جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب، ماهر مهدي، دار الرشيد للنشر، العراق، ١٩٨٠م.

١٤- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، السيد أحمد هاشم، دار الفكر، بيروت، ط١٢، ١٩٧٨م.

١٥- الحيوان، الجاحظ عمر بن بحر، تحقيق عبد السلام هارون ومحمد زغلول سلام، شركة فن الطباعة- مصر، ١٩٥٦م.

١٦- ديوان ابن خفاجة، تحقيق سيد غازي، منشأة المعارف الإسكندرية، ط١، ١٩٦٠.

١٧- ديوان ابن رشيق القيرواني، جمعة عبد الرحمن ياغي، دار الثقافة، بيروت، دون سنة طبع.

١٨- ديوان الرصافي البلنسي، جمعة وقدم له إحسان عباس، دار الثقافة – بيروت، ط١، ١٩٦٠م.

١٩- ديوان ابن سهل الإسرائيلي، تحقيق بطرس البستاني، مكتبة صادر بيروت، ١٩٥٣م.

٢٠- ديوان ابن شهيد، جمعة وعني بتحقيقه شارل بيلات، دار المكشوف – بيروت، ١٩٦٣م.

٢١- ديوان ابن عبد ربه، تحقيق محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة بيروت، ط١، ١٩٧٩.

٢٢- ديوان أبي حيان الأندلسي، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مطبعة العاني – بغداد، ١٩٦٩.

٢٣- ديوان المعتمد بن عباد، أحمد أحمد بدوي، حامد عبد المجيد، المطبعة الأميرية بالقاهرة، ١٩٥١م.

٢٤- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٠م.

٢٥- رسالة التوابع والزوابع، تحقيق بطرس البستاني، مكتبة صادر- بيروت، ١٩٥١.

٢٦- سايكولوجية الشعر ومقالات أخرى، نازك الملائكة، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد، ١٩٩٣.

٢٧- الشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه، اميلو غرسيه غومس، مطبعة التأليف والنشر، القاهرة،١٩٥٢م.

٢٨- الشعر في ظل بني عباد، محمد مجيد السعيد، مطبعة النعمان، النجف، ١٩٧٢.

٢٩- الشعر في عهد المرابطين والموحدين في الأندلس، محمد مجيد السعيد، الدار العربية للموسوعات، بيروت – لبنان، ط٢، ١٩٨٥م.

٣٠- ضحى الإسلام، أحمد أمين، دار الكتب العلمية- بيروت، لبنان، دون سنة طبع.

٣١- العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، دون سنة طبع.

٣٢- عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي، تحقيق طه الحاجري ومحمد زغلول، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٥٦م.

٣٣- فصول في الشعر ونقده، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٧١م.

٣٤- المثل السائر، ابن الأثير، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، النهضة المصرية – القاهرة، ط١، ١٩٥٩.

٣٥- المطرب في أشعار أهل المغرب، ابن دحية الكلبي، تحقيق إبراهيم الابياري وحامد عبد المجيد، وأحمد أحمد بدوي، دار العلم للجميع – سوريا، ١٩٥٥م.

٣٦- المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد الاندلسي، حققه شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ١٩٥٥.

٣٧- مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، دار الكتب اللبنانية- بيروت، ط٣، ١٩٦٧م.

٣٨- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تحقيق محمد حبيب الخوجة، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨١م.

٣٩- الموجز في الأدب العربي وتأريخه، حنا الفاخوري، دار الجيل – بيروت، ط١، ١٩٨٥.

٤٠- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقري، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، ١٩٦٨م.

٤١- نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجة،دار العلمية، بيروت.

٤٢- النكت في اعجاز القرآن، أبي الحسن علي بن عيسى الرماني، تحقيق محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، دون سنة طبع.

الرسائل

١- مصطلحات نقدية (وأصولها وتطورها إلى نهاية القرن السابع) رسالة ماجستير تقدم بها خير الله السعداني، كلية الاداب، جامعة بغداد، ١٩٧٤م.